ذكريات عشرين عاما فى مصحة حلوان

تأليف الدكتور عبد الرؤوف بك حسن مدير المصحة

عرض وتعليق فى مطلب مودة وتقدير

للدكتور لويس دوس

أستاذى القديم وصديق الكريم :

أهديت إلىّ مع الكتاب مودتك وتقديرك ، فإذا مودتك يثب إليها من مهجتى صنو يألف وإياها كأقوى ما يألف من الأرواح المجندة ، وإذا تقديرك فيما يتم عليه من تواضع العلماء الفضلاء يبتعث فى نفسى مالك فيها من كامن الشعور الضاعف بالنظير . وإنى لأعكف على كتابك قارئاً ملتهماً فآتى عليه فى ساعة أو نحوها ، وإذا شاعريتك المتأججة الجياشة وراء علمك وطبك تهز مشاعرى ترجيعاً لمشاعرك ، وإذا ذكرياتك تهتاج فى نفسى مثيلات تتداعى لها فينشط قلمى ليجلوها عليك .

بدأت كتابك من حيث بدأت صلتك بمصحتك ، وقبيل تلك البداية كان أول عهدى بك ، إذ كنت مميداً بكلية الطب ردحاً من الزمن ، وكنتُ مستهلا دراستى الطبية فى غمار جم من الطلاب غفير . وأشهد لقد كان يروقنى أسلوب تدريسك — والرجل ، بله المعلم ، هو الأسلوب — وكنت أستشف منه روح الشاعر الأديب وراء ذهن المعلم الطبيب ، وتلك روح مافتئت أراها مناط التمايز فى التدريس الطبى ، وقليل من يؤتاها ، ولقد أوتيتها حديثاً وكتابةً بما تنبط عليه ، حتى لأذكر أننى ضننت فى محفوظاتى إلى أمد قريب بعجالة لك بالانجليزية عن البلهارسيا تشهد لك فى هذه اللغة — فضلا عن العربية — بجودة البيان .

ولقد شاقنى من بعد ما تأتّى لى من كتاباتك ، فلا غرو أن يشوقنى كتابك عن مصحة حلوان ، وإن فى موضوعك هذا لخافية لست أدرى ما كنهها ، ولكننى عليم أنها تشوق كل طبيب أديب . ألم نصف كيف شاقتك ، بل ألهبت خيالك فكرة إنشاء المصحة ، ولما تزل طبيباً ناشئاً مغتربا عن الأوطان ، فساقتك إليها مستدرجاً متدرجاً حتى أضحيت لها نعم المدبّر المدير ، وإذا هى تملك عليك أقطار مشاعرك فتتفانى فيها كما يتفانى الربان فى سفينه وكأنما هى دنياه ، وإذا أنت تستهل كتابك بقصيدة بلغ من براعة استهلالها أن وقفت بالدار ، وبكيتها مؤذنة باندثار ، وشبّبت فيها بعروس أفكار ، كل ذلك فى اتساق وفى آن ، وكأروع ما ينوح على منازل القلوب صب ولهان !

أى سحر هذا الذى استحوذ عليك من مصحة حلوان ؟ وأية فتنة تلك التى تتجلى فى استهواء المصحة للأطباء الأدباء : على ما هو معروف من هوايتك ، وما وصفت من هواية الدكتور « برناند » مدير المصحة الأول . وإن شئت مزيداً فانى لأذكر — وإن بَعُد العهد — غدوات لى إلى المصحة وروحات ، كنت أعود بها ، وأنا بعد طالب طب ، زميلا فاضلا لى كان ثمة يستشفى ، وكان هو أيضاً يهوى الأدب وما يزال ، وقد أبرأته المصحة بمنة الله ، فلم يكد يتم دراسته حتى التحق بها ضمن من تتابعوا عليها ممن سميت من أطباء . ولعلى سمعت عن أطباء غيره بمثل قصته ، وعجيب أن تترادف الأمثلة بهذه الظاهرة فى جانب الأطباء ، وأن يقابلها فى جانب المرضى ما يؤكدها بما هو متواتر مشهور : من تفزز حسهم ، وحدة خيالهم ، وسطوة مشاعرهم وغرائزهم ، حتى ليكثر بينهم الموهوبون بالفنون ، على ما ألمت إليه فى كتابك ، وما حفلت به روائع القصص وافتن فيه كتابها المبدعون .

على أننى رأيتك ، يا صديق ، أوشكت تنفصل فى قصيدتك من هوايتك الأدب ، فتقول إنك آثرت على براعتك ببضعك ومسماعك ، كأنما أصبح الأدب للأطباء فى هذا البلد تهمة تدفع ، وزلة يعتذر منها ، وإنه فى سائر بلاد الله لعمدة تذاع ومفخرة يشاد بها — تنبىء عن ذلك مطالبهم — فما تكاد تخرج إلى عالم الأدب كتاباً لطبيب حتى تتلقفه الأيدى فلا يسامحها منه تلاحق الطبعات . ألا فهوّن عليك ، يا صديق ، تحرجك من الأدب ، ولا تولع منه بفرط إشفاق : وخذ بنا فى تلك الظاهرة